١ ـ أحمـــــد رامي

للأستاذ دريني خشبة

حاولت أن أكتب عن أحمد رامي غير مرة ، فكان الشعر يغازل قلمي ، وكانت الدنيا كلها تمتلئ بالغناء والموسيقا من حولي ، وكانت ترجمته تجتمع في خيالي نشيداً طويلاً تاماً متسق الألحان متنوع النغم ، يضرب العقاد في مثانيه من هنا ، والقصبجي في مثالثه من هناك ، وبقية السادة النُّجُب ، أفراد التخت الموقر الخالد من فوق ومن تحت ، يلوِّنون ويفتنُّون ، والصوت الإلهي المقدس يشيع في اللحن فيرف به في القلوب ، ويملأ به الشاعر ، ويطوف به على العذارى والمحبين والمكلومين ، فيرطب للكبد الحرَّى ، ويأسو الفؤاد المحترق ، ويكفكف الدمع في المقلة المؤرقة ، ويرطب اللسان الظامئ ، والفم الغرثان ، بالأغاني الصامتة ، والآهات الخافتة ، فيتسلى محب ، ويرق حبيب

وكنت في كل مرة أستغني بهذا الخيال الجميل الحلو عن الكتابة ، لأنه خيال روحي حي تمسخه الكلمات ، وتزيفه تراكيب الجمل ، ويُضَنُّ به على هذا الهراء الذي يسمونه التحليل في عالم النقد ، وأسميه التزييف في دنيا الجمال ...

يتهمني كثير من إخواني القراء بأنني أسخو في ثنائي على الشعراء الذين أختارهم للكتابة عنهم ، ويبتسم لي الأستاذ الزيات مرة ويوصاني بالاقتصاد في هذا الثناء ؛ فمن عذيري إذا لم أجد مندوحة عن الثناء على رامي ! ... رامي الذي أغرم العالم العربي كله بأغانيه ، فأنصت إليها ، وتغناها ، وهتف بها ، وداوى بسحرها آلامه ، وأروى بسلسالها أوامه ، وجملها مشرع حبه ، وترنيمة وجده ، وتملة هواه

من منا أيها الإخوان لم يخل إلى نفسه فوجدها تردد أغاني رامي؟ ترددها راضية وترددها محزونة ، وترددها مشوقة وترددها هائمة وترددها فرحة مرحة طروباً ! مَن مِن أبناء هذا الجيل لم يملأ رامي عشرين عاماً من عمره السعيد المديد بما يمتلئ به قلبه من شعر وغناء ومحبة ؟ من منا لم تسحره منظومات رامي التي أودعها أسرار قلبه ، وسقاها مُنْهَلَّ دمعه ، وخلط بها دمه ونجوياته وأمانيه ؟ !

إن المعرفة الإنسانية يا أخانا ليس لها زمان

وإن النفس الإنسانية يا أخانا ليس لها زمان ، وليست هي من « مودل » سنة ١٩٤٤ دون ما تقدمها من السنين

فإذا كشف الكاتب حقائق المعرفة الإنسانية أو حقائق النفس الإنسانية في سيرة خالد بن الوليد ؛ فهو قد كشف الحقيقة التي تبقى ألف سنة وألفي سنة بعد اليوم ، بل تبقى ما بقي الإنسان ونفس الإنسان ، يوم تكون مساحة الأرض الزراعية وعدد الآلات الصناعية في سنة ١٩٤٤ عدماً فانياً ، كأنه لم يخلقها الله قط في عالم الوجود

يصح أن يذكر الكاتب الظريف هذا كله ، ويصح أن يذكر معه أن إحياء الروح العربي والقومية العربية في عصرنا هذا موضوع لا يجيء اليوم في غير موعد ولا على غير أوان

انجلترا والولايات المتحدة تتحدث بالجامعة السكسونية ، وهي القوية الغنية عن الجامعات

والروح العربي لازم جداً في هذا العصر ، لأن المذاهب الهدامة التي تهدد مستقبل الآدمية كلها تأبى أن تكون للأمم نخوة قومية ، أو نخوة لغوية ، أو نخوة دينية ، ولا تريد من الناس إلا أن يكونوا نقابة أجراء تشتغل بأسعار السوق وأحاديث الخضر واللحوم

ولهذا نحن نكتب عن خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وعمرو بن العاص ، وكل بطل من أبطال التاريخ

وإذا فرغنا من كتبنا التي ندرسها الآن فأحب شيء إلينا أن نبحث عن بطل مضت عليه خمسة آلاف سنة لنخصه بالتقديم والتفضيل ، ونعتقد أن تقديمه وتفضيله أعون على التعريف بنفس الإنسان من أبطال العصر الحاضر ، لأن الناس يستغربون ما مضى من الأجيال ؛ فإذا رفعنا عنهم الغرابة كان هذا أدعى إلى التعريف بحقائق الإنسان

سنكتب عن هذا وأمثاله ما شئنا نحن أن نكتب فيه ، وشيء واحد لن نكتب عنه طال عليه الزمان أو قصر ، وهو الموضوع الذي يمليه علينا أعداؤنا الماركسيون مستترين أو مصرحين ، وهم فاهمون ونحن فاهمون

عباس محمود العقاد

إن رامى العظيم الخالد ، هو ذلك النبع الأول الصافى ذو الخرير ، الذى تفتأ الحائم الوُرق تحوّم من فوقه وتهوى إليه ، لتحسو من صفحته الحسوة والحسوتين تبل ظمأ وتشفى جُواداً ، ثم تسكن إلى الأفنان لتملأ الدنيا هديلاً ، وتبشر المحبين برسالة رامى ... رامى الذى يقول منذ ربع قرن :

تغلغل الحب فى فؤادى　　تغلغل الماء فى الغصون
وأرسل الحسن فى قريضى　　من نوره الواضح المبين
فجاء أحلى من الأمانى　　تبسمن لليائس الغبين
وجاء أشجى من الأغانى　　تَندَين بالوجد والحنين
يا ريشة الوهم صوّرى لى　　فى صفحة الخاطر الحزين
ما جف من يانع جَنىً　　وغاض من سلسل مَعِين
ويا طيور الخيال خفّى　　فى دولة الليل والسكون
وابكى فضاء صدرى　　ورجّعي من صدى أنينى
ورفرفى فى على فائت تقضّى　　ترفضّ من ذكره شئونى

ويخيل لى ، وأنا أردد هذا الشعر الجميل من شعر رامى الذى حفظته منذ ذلك العهد ، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يكتب عن رامى دون أن يغازل الشعر قلمه كما يغازل قلمى الآن . وللكتابة عن الشعراء الممتازين أو الأدباء الممتازين خطط متنوعة سهلة كلها ، يسير على المؤرخ أو الناقد ... ولعل أصعب هذه الخطط وأشدها عسراً على الناقد أو المؤرخ ، هى تلك التى يغازل الشعر فيها قلمه ، فلا يدعه يقول ما يريد ، ولا يتركه يسير فى تلك السبل السهلة المعبدة التى سار فيها الكتاب قبله . فيبدأ بكلمة عن نشأة الشاعر والبيئة التى أرضعت بلبانها خياله وغذت بثمارها وجدانه ، وسلطت ظباءها وألوانها وأضواءها على قلبه تنوشه وتطبع على شغافه الأحمر والأصفر والوردى والبنفسجى ، وتضوّى سويداءه استعداداً لتلقى وحى السماء ... ثم يتناول بعد ذلك الظروف التى هيأت للشاعر قول الشعر ، ومما يتردد فى تلك الظروف من غزل ونظر ودعابة ، تنقلب آخر الأمر إلى قلب يرتجف ولسان يتلجلج ، ودمع يترقرق وعين مؤرقة ، وكبد محترقة وخيال كامل شامل يتسع للأرض والسموات ، ويد تتناول القلم ، هذا المخلوق العجيب ، فتسجل الآيات البينات ، ترسلها كلاماً موسيقياً موزوناً حافلاً بالمعانى الفريدة ، ثم يفرغ — أى الكاتب أو المؤرخ — إلى شعر هذا الشاعر ينقده ويزنه ، ويظل يقول لك هذا جيد وهذا ردىء ، وذلك متوسط ، وذاك غامض ، وتلك الفقرة لا معنى لها ، وهذا الشطر لا خير فيه ، حتى إذا كنت قد كونت لنفسك رأياً فى الشاعر قبل أن تقرأ هراء الناقد . وحتى إذا كنت قد أغرمت بشعره ، ورضيت عن طرائقه وموضوعاته ، تسلمك لناقد المحترم بآرائه فلا يدعك حتى تغثى نفسك ويتقزز خيالك ، وتمسخ الصورة الجميلة الرائعة الحبيبة فتصبح هولة أو سعلاة ...

أما الخطة التى يغازل الشعر فيها شباة القلم ، فلا تتأتى إلا إذا كانت ثمة صلة روحية بين الشاعر والناقد . ولقد أراد المرحوم الأستاذ صادق عنبر أن يكتب كلاماً ما يجعله مقدمة لديوان رامى ، فلم يستطع أن يقول شيئاً . ولكنه كتب سطوراً جميلة ، يحمل كل منها بيتاً منثوراً من الشعر ، لا يصله بالبيت السابق ولا يربطه بالبيت اللاحق سبب من الأسباب ... وإليك نموذجاً من أوائل هذه الأبيات :

عرفته فتياً يخف للشعر ويجتمع له ...الخ

وعرفته وقد لبس الشباب ، وإذا شمائل مرجوة المخايل ...

ثم عرفته شاعراً غزلاً يشبه أن يكون كالبهاء . فى الضحك والبكاء ...

وإنك لتراه ، فتقرأ شعره فيه ... وتقرأ له فتراه فى شعره ، لقد رق مزاج شعره ، وعذب على النفس اطراده ...

ويندر أن تلقاه إلا باكياً أو ضاحكاً ... فإذا بكى ... وإذا ضحك ... وهكذا إلى آخر الصفحات الثلاث التى قدم بها للجزء الأول من ديوان رامى الذى يشمل شعر صباه بين سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧

وأنا والله أعذر المغفور له الأستاذ عنبر وأطلب له من الله الرحمة ، فرامي من الشعراء الذين تصعب الكتابة الموضوعية عنهم ، وقد غازل الشعر قلم عنبر كما يحاول أن يغازل قلمى الآن ، وكما غازل قريحة شوقى — رحمه الله — حينما قدم للجزء الثانى من ديوان رامى بأبيات ثمانية يقول فى أولها :

ديوان رامى تحت حاشية الصبا　　عذب عليه من الرواة زحام
بالأمس بل صدى النهى وسَمِيُّه　　واليوم للتالى الولى سجام
شعر جرى فيه الشباب كأنه　　جنبات روض طلهن غمام
فى كل بيت مجلس ومدامة　　وبكل باب وقفة وغرام

والبيت السابع

أما زهير فقد سما (هرم) به　　ولتسمون بشعرك الأهرام ...